مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: صوت الامة

التاريخ : ٢٠٠٢/٦/٣

شتم المصريين فشتموه.. وأهانهم فأهانوه..

وحاول تشويه عبدالناصر.. فتكتلوا عليه!

الجرأة على السادات!

لم تكن الصورة التي نشرتها جريدة «الميدان» للرئيس السادات قتيلاً وعارياً، إلا حلقة واحدة من حلقات الجرأة على الرئيس السادات، والتطاول فى تناول سيرته، منذ تولى حكم مصر بعد وفاة عبدالناصر عام ١٩٧٠، فالرجل مستباح فى الجلسات الخاصة وعلى صفحات الجرائد، الكل ينهش فيه بلا رحمة.. ولا خجل، وكنت أجدنى كلما سمعت سباً للسادات وطعناً فى سياسته وفى المقابل أجد تقديساً لعبدالناصر وتأليهاً له.. كنت -وما زلت أقول- إن المصريين يعاملون عبدالناصر مثل أبيهم.. ويعاملون السادات مثل زوج الأم.

الطريف أننا لا نعامل السادات على طريقة سعيد صالح فى مسرحيته «هاللو شلبى» أن الذى يتزوج أمى أقول له يا عمى، ولكننا تعاملنا معه على طريقة اللى يتجوز أمى أضربه على دماغه.. وأنتقم منه شر انتقام حياً وميتاً.. مهزوماً ومنتصراً.. فهو لا يستحق إلا اللعنة.. حتى ولو قدم فى حياته شيئاً ضئيلاً.. يستحق به العفو والمغفرة!

حضور السادات فى حياة المصريين لا يخرج عن إلقاء نكتة عليه.. أو اتهامه بالخيانة أو وصفه بأنه كان رجلاً يحب المزاج بتاع حشيش.. والتراث المسموع والمقروء يؤكد ذلك، فقد وصفت قناة الجزيرة معاهدة السلام التى أبرمها السادات مع إسرائيل مجرد تحشيشة.

وبلغت المأساة ذروتها عندما صدرت جريدة العربى الناصرى فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠، وعلى صدرها عنوان عنيف يقول بكل بساطة -ولن أقول سذاجة- «عبدالناصر بطل القرن.. والسادات الخائن الأعظم».. وفى سبيل تبني الجريدة لوجهة نظرها استعانت بمقال الدكتور فؤاد مرسى قال فيه: مات عبدالناصر وهو يعد لمعركة كبرى مع إسرائيل لإزالة آثار العدوان، وقبل عبدالناصر ماسمى بمبادرة روجرز بأمل استكمال عدته للقتال، فلما تولى السادات أوحى إلى الأمريكان بأنهم سيجدون فيه شخصاً آخر غير عبدالناصر، وبدأ بمواصلة تجميد الموقف العسكرى استجابة لمبادرة روجرز منذ أغسطس ١٩٧٠، وقدم لذلك ما سمى بمبادرة ٤ فبراير ١٩٨١ التى انفرد السادات بوصفها بعيداً عن قيادة الاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء، ودعا فيها إلى انسحاب إسرائيلى جزئى وفتح قناة السويس للملاحة العالمية، وعلى الرغم من إهمال إسرائيل وأمريكا لمبادرة «السادات»، فإنه استمر فى موقف التجميد بحجة تقاعس الاتحاد السوفيتى عن استكمال تسليح الجيش واتفاق موسكو وواشنطن على الاسترخاء العسكرى فى المنطقة، وفى أبريل ١٩٧١ أعلن السادات عن قيام اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة بين مصر وسوريا وليبيا ضارباً عرض الحائط بإجماع قيادة الاتحاد الاشتراكى على معارضته، لكنه مع التخلص مما اسماه مراكز القوى،وإعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى ومجلس الشعب الجديد، تطلع

السادات إلى إقامة نظام عربى جديد انتهى إلى تسليم قيادة المنطقة العربية للسعودية، وعلى الرغم من توقيعه فى يونيو ١٩٧١ معاهدة للصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى، فإنه سعى حثيثًا لتوتر العلاقات المصرية السوفيتية والبحث المستمر عن أسباب للصدام، ولم تمر سنة واحدة على المعاهدة حتى قام السادات بطرد الخبراء السوفيت دفعة واحدة، تقريباً وزلفى إلى الأمريكان.. لكن الأمريكان واصلوا إهمالهم له».

اتهام جريدة العربى للسادات بالخيانة لم يمر مرور الكرام، مما اضطر القائمين على الجريدة إلى تقديم اعتذار لأسرة السادات عن هذا الوصف الذى رآه بعضهم توصيفاً معنوياً، فليس المقصود أن السادات خائناً بالمعنى المادى.. لكنه خائن بالمعنى المعنوى، بل واستشهد بأغنية حديثة لعلى حميدة يقول فيها «خان العشرة ليه»، ما فعلته الجريدة لم يكن مسبوقاً.. فهى قدمت فقط ما يقوله المثقفون فى جلساتهم على المقاهى.. والناصريون على النواصى.. أخرجته من إطار الجلسات الخاصة إلى العلانية.. ولا تفسير لذلك إلا أن كل من يصف السادات بالخيانة يملك فى داخله شيئاً ما يجعله يتجرأ ويعلن رأيه فى السادات.. هذا الشئ هو ما يهمنا أن نبحث عنه.. فقط أؤكد اننى لست طرفاً.. فلا أنا ناصرى أتعبد فى محرابه أناء الليل وأطراف النهار ولا أنا ساداتى أتغزل فى أعماله وأقواله وسياساته.. ولكنى إذا جاز التعبير «بازى النزعة» أقتنع بما يتسق مع إنسانيتى وإنسانية من حولى.. وما يوفر لهم حياة كريمة لا مكان فيها للذل والهوان.. فأنا لا أقبل انتهاك الإنسان حتى لو كان ذلك باسم الوطن أو الزعيم الملهم أو الرئيس المؤمن!

أنا أرصد فقط.

عندما جلس السادات مكان عبدالناصر لبحكم مصر.. اعتقد الجميع انه غير كفء وانه لن يستطيع أن يتحمل المسئولية.. فهو لا وزن له ولا قيمة، رغم أن عبدالناصر هو الذى اختاره.. وهو ما يعنى أن السادات كان أفضل رجاله.. فقد كان أكثرهم خبرة وحنكة سياسية وأوسع إدراكاً لما يدور حوله فى مصر أو العالم، ولو لم يكن السادات يستحق أن يخلف عبدالناصر لما عينه نائباً له، ولا مكان هنا للتفسير الفانتازى الذى يتبناه صلاح عيسى من أن عبدالناصر اختار السادات خليفة له.. حتى يترحم عليه المصريون عندما يقارنون بينه وبين السادات.. فالفارق بينهما سيكون كبيراً، فمع احترامى لتفسير الأستاذ صلاح.. لكنه لا يصلح لتفسير سلوك رؤساء بقدر ما يصلح لتفسير سلوك ستات فى حى شعبى يكدن لبعضهن البعض لأى سبب تافه.

لقد أعلن السادات للمصريين من أول وهلة أنه لن يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه عبدالناصر.. ففى الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة عبدالناصر وقف

السادات ليتحدث فقال: إنها لحظات شاقة جداً على نفسى أن أقف لأتحدث فى ذكرى جمال ولا أكتمكم؟ اننى كما تعودت وكما نشأت فى بيئتى الساذجة فى القرية، لا استطيع ابداً ان احزن كما يجب ان احزن أو كما نتعود فى القرية، ان احزن على حبيب أو صديق.. إلى هذه اللحظة لم أستطع ابداً.. كان جمال صديقاً وفياً لكل زملائه، كان جمال مثال الاخ والصديق والعون لكل من يريد العون.. بهذا بدأ جمال تنظيم الضباط الأحرار.. وقبل أن تقوم المبادئ الستة أقام التنظيم على قيم نحترمها هنا فى بلدنا «الوفاء والحب والصداقة».

ما قاله السادات هذا كان امتداداً لما قاله عن عبدالناصر اثناء حياة ناصر، وتكفينا هذه الفقرة من كتاب السادات الذى منحه اسم «يا ولدى هذا عمك جمال» قال فيه: «وجمال يا رب من صنعك الرائع وإبداعك القاهر، إنه عبدك المؤمن بك المتوكل عليك المسير بإلهامك الباعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام ونصرة اليوم.. يارب هو أروع ما وهبتنا من انتصارات».

وكان هذا الثناء من السادات على عبدالناصر فى حياته وبعد موته، وتاكيده على انه سيسير على طريق عبدالناصر، جعله يهون فى عيون الناس.. وعيون رفاق عبدالناصر الذين رأوا فيه دمية يستطيعون أن يفعلوا بها ما يريدون وقتما يشاءون لكنه ضربهم بقوة وجمعهم جميعًا فى سلة واحدة كما يقول أنيس منصور والقى بهم فى السجون.. لكنه وحتى بعد أن القى برجال عبدالناصر كان يؤكد على ولائه وإخلاصه ووفائه لناصر!

وفى شهادة نجيب محفوظ على زعماء مصر يقول عن السادات: «كانت انطباعاتى عن السادات سيئة منذ توليه السلطة بعد عبدالناصر، وظلت تلك الانطباعات كما هى لم تتغير حتى كانت أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، حيث اكتشفت خلالها أن هذا الرجل داهية، وليس سطحياً كما تصورت، وأنه أشبه بالشخص المستضعف فى أفلامنا السينمائية القديمة والذى يفاجئ الناس بأفعال لم يتوقعوها منه!

شخصية المستضعف هذه تشبث بها السادات ولم يحاول أن يغيرها، فقد سأل أنيس منصور السادات قائلاً: يقال إنك أفلحت فى إقناع الرئيس عبدالناصر بأنه لا خطر لك ولا خوف منك على عبدالناصر، ولذلك طال وجودك إلى جواره، فاستراح جمال عبدالناصر

إليك تماماً، ثم إنك ذهبت إلى أبعد من إقناعه بأنك رجل مريض إلى أن أوصيت عبدالناصر على أولادك لأنك سوف تموت قبله، فلم يعد لديه خوف أو قلق.. وهكذا طال عمرك السياسي.. فضحك السادات ولم يعلق بشيء.

ولأن الأسئلة بين أنيس والسادات لم تكن تنتهي على طريقة قل لي يا ريس نعم يا أنيس.. سأله أنيس مرة عما يقال عن أن السادات في جنازة عبدالناصر تظاهر بأنه مصاب بأزمة قلبية، وكذلك فعل علي صبري، ولم تكن هناك أزمة، إنما كانت لدى السادات معلومات مؤكدة أن هناك محاولة لاغتياله سوف تنفذ أثناء الجنازة.

وللمرة الثانية يضحك السادات قائلاً: ياباي إن أحداً لا يصدق أحداً.. أعوذ بالله.. ولم يثبت السادات الواقعة، ولم ينفها.. ويبدو أنه كان يحب أن يظهر بمظهر الرجل الغامض.. وهو ما جعل الجميع يستضعفونه ويسخرون منه.. ولم يكن يأخذ رد فعل.. مادام ينفذ ما يريده!

وعندما نعود مرة ثانية وأخيرة إلى شهادة نجيب محفوظ عن الرئيس السادات نجده يقول: «من تحليلي لسلوكيات وأفعال السادات توصلت إلى أنه شخصية غريبة الأطوار تدعو إلى الحيرة والدهشة، فأحياناً يغضب من تصرف أو رأى ويعاقب صاحبه، ثم لا يلبث أن يقوم هو بنفس التصرف، وطبيعي أن شخصية هذا مسلكها يمكن أن تغرى الآخرين بالتطاول عليها حتى ولو سراً، فلابد أنه ستأتي فرصة لتكون السخرية السرية علنية.

حاول السادات أن يحكم مصر بمفرده وبعيداً عن ظلال جمال عبدالناصر بعد انتصاره في حرب أكتوبر، فما الذي ينقصه الآن.. لقد انتصر على اليهود الذين هزموا ناصر.. وآن الأوان أن يدين له المصريون بالولاء.. لا لأنه خليفة عبدالناصر والرجل الذي يسير على طريقه.. ولكن لأنه القائد المنتصر.. الذي يجب أن يعشق لذاته.. وليس لذات سلفه.. لم يدرك السادات أن

ذلك لم يكن ممكناً.. فقد راه المصريون منذ البداية اقل من عبدالناصر.. وساعدهم هو على الاقتناع بذلك.. وعندما جاء ليغير الصورة لم يتمكن من ذلك لأنه قد «فات الميعاد».

لم يتصرف السادات بحنكة.. فقد اراد اقتلاع عبدالناصر من جذوره وتشويه صورته.. فعل ذلك عندما لم يعترض على حملات التشويه التى تعرض لها عبدالناصر من بعض الكتاب والصحفيين ورسامى الكاريكاتير.. وفعل ذلك عندما تطوع هو نفسه وتحدث عن عبدالناصر.. قال عنه إن عبدالناصر كان مشغولاً بالخرافة التى أصبح اسمه مقترناً بها، خرافة كبيرة جداً فى مصر والعالم العربى فهو البطل الذى حقق النصرعلى امبراطوريتين كبيرتين بريطانيا وفرنسا.، ولم ينس السادات أن يؤكد انه ورث اقتصاداً مهلهلاً.

بفعل سياسات عبدالناصر، حاول السادات أن يؤكد أنه وراء فكرة تنظيم الضباط الاحرار.. وان عبدالناصر نزل على التنظيم فى مرحلة لاحقة.. وهو ما رفضه الذهن المصرى والعاطفة الشعبية التى كانت لا تزال متأججة بحب عبدالناصر.

ولعل حملة السادات على عبدالناصر.. كانت وراء حملة النكت التى حاصرت السادات تسخر منه ومن كلامه عن علاقته بعبدالناصر.. ومن بين سيل النكت كانت هذه النكتة «جاء عبدالناصر للسادات فى المنام، وقال له:

- يا أنور

- أفندم يا ريس

- إنت بتقول إنك عملت تنظيم الضباط الأحرار، ماشى، وبتقول إنك اللى عملت الثورة ماشى، وبتقول إنك الوحيد اللى حاربت الفساد ماشى، لكن قل لى إنت بذمتك كنت تقدر تقولى يا جمال كده؟.

بل إن بديهة المصريين السريعة جعلتهم يتصرفون فى النكت التى كان يلقونها على عبدالناصر.. مثال ذلك أن مواطناً صلى فى مسجد جمال عبدالناصر وراح يتمتم وهو يرفع يده إلى السماء فسأله جاره:

- بتعمل إيه.

باقرا الفاتحة لسيدى المفترى.

لكن وبعد أن مات عبدالناصر وبعد أن فتحت عليه ابواب جهنم.. وانهالت عليه الشتائم والاتهامات من كل مكان.. أصبحت النكتة تقول: إن الرجل الذى كان فى مسجد عبدالناصر سئل بتعمل إيه: فقال: باقرا الفاتحة لسيدى المشتوم.

اعطى السادات الفرصة للمصريين ليسخروا منه.. سلمهم نفسه طواعية.. ولذلك سرعان ما تحولت النكتة من نقد موقفه من سلفه عبدالناصر إلى نقد مواقفه وسياساته الأخرى.. فقد سخر المصريون من حرصه على إلقاء تصريحاته السياسية بعد أداء صلاة الجمعة، وحرصه الاكبر على أن يظهر خاشعاً

في ركوعه وسجوده أمام كاميرات التليفزيون فأطلقوا عليه هذه النكتة: خرج السادات ذات يوم ثم عاد مسرعاً فسألته زوجته:

- إيه.. فيه إيه؟

- نسيت حاجة مهمة جداً؟

- نسيت إيه؟

- زبيبة الصلاة!

لم تكن النكتة وحدها هى التى جرجرت السادات إلى الشارع وجردته من ملابسه وسخرت منه .. وقف الشعر العامى ايضا وجها لوجه أمام السادات وجاء أحمد فؤاد نجم بقاموس بذاءاته الشهير الذى جمعه من حياة الصعلكة ليقول فى قصيدته بيان هام : نقدم إليكم / ولاتقرفوش / شحاته المعسل بدون رتوش/ يافين / يبلبع حبوب / ويفضل يهلفط ولاتفهموش/ بسم الله / سلام عليكم / وسلمون وموز/ وأما المسائل فهنجف ولوز/ مساء التنفس / مساء الروايح/ سلام عليكم بصفتى رئيسا وأبا وجوز.

وفى قصيدة الانتخابات اختار نجم للسادات اسم «العيسوى» إمعانا فى السخرية منه وتسهيلا للاستدلال عليه ، يقول فيها: بشرى لجميع الحشاشة/ العيسوى بيه رمز الماشة/ سبحان الله من أو مباشة/ بقى كل الأمن العام فى إديه/ العيسوى بيه/ العيسوى بيه/ من أجل ضمان الحرية/ لجميع تجار الباطنية/ العيسوى بيه ميه الميه حيخلى القرش بربع جنيه.

لقد ظل المصريون يربطون بين النكتة والمخدرات.. وعندما جاء السادات أصبح ضلعا ثالثا.. فأينما وجدت نكتة ومخدرات .. ستجد إلى جوارهما الرئيس السادات .. وهذه واحدة من كثير .. خرج السادات ليشم الهواء على الطريق الزراعى ، فوجد غرزة فدخلها ، فمد أحدهم إليه قائلا:

- مساء الخير.. فتناول الجوزة وسحب نفسا ثم أعادها لصاحبها الذى سأله:

- والأخ بلا أفيه بيشتغل إيه؟.. فرد

- أنا رئيس الجمهورية.. فقهقه الرجل قائلا:

- كده من أول نفس!

لقد طالت النكتة كل زعماء مصر.. وجعلت عبدالناصر بكل شموخه وكبريائه يهتز أمامها ، بل راح بعد هزيمة ١٩٦٧ يطلب من الشعب أن يكف عن طعن الجيش من الخلف بالنكت ، وكان يؤكد أنها سلاح للعدو، لايجب أن نستخدمه بأيدينا ، لكن حتى النكت التى قيلت عن عبدالناصر كانت مختلفة تماما عن التى رمى بها السادات، فبينما ركزت النكت التى حظى بها عبدالناصر على قوته وعنفه وافترائه على خلق الله أحيانا.. راحت النكت التى كانت من نصيب

السادات تسخر من ضعفه وقلة حيلته إلى الدرجة التى أوصلته فيها إحدى النكت أنه لم يكن يصدق نفسه أنه أصبح رئيسا للجمهورية.. فبعد توليه الرئاسة قال لنفسه ذات يوم:

- يجب أن أناقش الرئيس فى كثير من الأمور اليوم .. لكنه استدرك قائلا :

- لكننى أنا الرئيس .. فماذا أفعل .. آه .. ينبغى أن أناقش زوجتى فى هذه الأمور.

ولأن الشارع المصرى اعتبر السادات ضعيفًا منذ البداية فقد تجرأ على أهل بيته وأطلق فى حقهم النكت أيضا.. ويقول هيكل إن السيدة جيهان السادات كانت تهتم اهتماما خاصا بتقارير النكتة عنها وعن زوجها ولم تكن تضحك لهذه النكت ، بل كانت تبدو غاضبة وهى تسمعها أو تقرؤها وكانت تعلق أثناء ذلك بعبارات قاسية .. قائلة إن الشعب المصرى لايستحقها هى وزوجها .. ولو أنصفه القدر لكان مكانهما دولة أخرى وشعب آخر.

كان السادات على عكس زوجته يضحك للنكت التى تصله بل كان يرويها لبناته ويضحك معهن عليها.. بل كان يطلب من أصدقائه والمقربين منه أن يرووا له النكت الجديدة .. ولم يكن غريبا أن يروى السادات بنفسه بعض النكت ، ولعل هذا ما أغرى الناس بالتنكيت على السادات والسخرية منه.. فما دام الرئيس ينكت .. فلماذا لا ينكتون عليه هو.

لقد أضر السادات نفسه ضررا بالغا عندما أحاط نفسه بمجموعة من الندماء ، واستغنى عن المستشارين ، وعلى مايبدو أن السادات كان لايحب وجع الدماغ بالاستماع إلى المشاكل.. فقد قرب السادات إليه عثمان أحمد عثمان الذى كان بطبيعته مسئولا عن إزالة الشوائب التى يمكن أن تعلق بمزاج السادات، وحاز أنيس منصور عقل السادات وكان قادرا على إضحاكه وتسليته وإذهاب الملل عن نفسه، ولذلك لم يكن السادات يستطيع أن يستغنى عنه.

قرب أنيس منصور من السادات يجعلنى أنصت إليه وهو يحلل أخطاء السادات وعيوبه .. يقول أنيس : قبل الثورة كان السادات هو الوحيد المعروف والباقون محدش يعرفهم كان عنده فكرة وهدف ، وهذا الهدف كان يتم سرا، وكل من تآمر عليهم السادات من رجال عبدالناصر، كان رأيهم فى السادات أنه ولا حاجة وأنه راجل مهرج، ويرى أنيس أن السادات مسئول عن هذه التهمة، لأنه لم يجرؤ أن يفصح عن أعماقه أمام جمال عبدالناصر، ولولا هذا الشعور لكان عبدالناصر قضى عليه تماما.

ولأن حكايات أنيس منصور لاتنفد؛ فهو يحكى أنه ذات مرة قال له الرئيس السادات إن عبدالناصر كان هو الزعيم ولم يكن يقبل أبدا أى واحد يبان قدامه

ويكون له رأى أو نظرية وتوارت كل الرءوس ويعلق أنيس على هذا الرأى بأن السادات احتفظ بآرائه فى صدره ولهذا بقى طويلا لم يكن فى مجلس قيادة الثورة يظهر بمظهر المهتدى وإلا كان انتهى من زمان!

إلى جوار أنيس منصور قرب السادات أيضا موسى صبرى الذى لعب دور المبرراتى فى حياة السادات.. كان يبرر له كل قرار ويظل يؤكد على عبقريته وأنه على صواب حتى كان سببا من أسباب اغتياله ، فقد لعب موسى دورا فى خداع السادات عندما أقنعه أن كل الشعب المصرى يحبه وأن من يعترضون عليه قلة حاقدة لا وزن لها ولا خوف منها.

فعل السادات ماهو أكثر من ذلك ..

فقد قرب إليه أيضا فايز حلاوة الذى كان مسئولا عن إضحاك السادات وترويق مزاجه وقد استثمر حلاوة جلساته الخاصة مع السادات، فقد كان يجمع النكت التى تلقى فى مجلسه ويضعها فى مسرحياته التى قدمها مع زوجته وقتها تحية كاريوكا بعد حرب أكتوبر، مثل روبابيكيا، البغل فى الإبريق، ويحيا الوفد ، وفى المسرحية الأخيرة سب حلاوة السوفيت ، وضحك السادات عليها طويلا لأنه شارك فى تأليفها .. وتكاد تكون هذه هى المرة الوحيدة التى تهبط فيها النكت من جلسات الرئيس الخاصة إلى الكباريه السياسى.

وعلى نفس المساحة الهزلية اقترب حمادة سلطان المنولوجست الكبير وماكينة النكت التى لاتتوقف من جلسات السادات الخاصة، بل كان يطلبه الرئيس السادات فى أى وقت ، لا لشئ إلا ليطلب منه أن يحكى له آخر نكتة .. هذا الاقتراب بين السادات وحمادة سلطان .. جعل الناس يضعونهما فى سلة واحدة.. فلا فرق بين منولوجست بدرجة رئيس ، ومنولوجست بدرجة مهرج يروى النكت ويتبادل القفشات مع الرئيس!

وفى الوقت الذى اقترب فيه كل هؤلاء من الرئيس السادات، كان هيكل برجاحة عقله وقدرته على التصرف كان قد ابتعد عن السادات تماما، ظل هيكل إلى جوار السادات فى صراعه مع مراكز القوى للدرجة التى جعلت السادات يؤكد أن هيكل كان مهندس العملية من بدايتها إلى نهايتها التى كللت بانتصار السادات.. ووقف إلى جواره فى حرب أكتوبر!

لكن العلاقة العميقة انهارت وتحولت فى بعض مراحلها إلى عداء ظاهر.. فى فبراير ١٩٧٤، اتصل عبدالفتاح عبدالله وزير شئون رئاسة الجمهورية بهيكل ليخبره بوجود خمس غرف جاهزة تنتظره فى

الجناح الذى أعد له فى قصر عابدين بعد تعيينه مستشارا لرئيس الجمهورية، رفض هيكل العرض قائلا: إننى لا أنوى الذهاب إلى قصر عابدين وإنما انا خارج من الأهرام إلى بيتى حتى أعثر على مكتب أعمل منه كصحفى وكاتب مستقل ، وعلى باب الأهرام قال هيكل للصحفيين الذين كانوا فى انتظاره :«إننى استعملت حقى فى التعبير عن آرائى بصراحة والرئيس السادات استعمل سلطته فى إخراجى من الأهرام».

ترك خروج هيكل من الأهرام فى نفسه جرحا غائرا .. لم تمحه الأيام ، لقد حاول السادات أن يقترب من هيكل بعد ذلك، ففى نوفمبر ١٩٧٤ وبعد قطيعة تامة استمرت شهورا ، اتصل السادات بهيكل وطلب أن يلقاه فى استراحة الهرم، كان هيكل مشغولا بكتابه الطريق إلى رمضان ، وكان السادات يشعر بضيق وضغوط من كيسنجر وعلى وشك الذهاب إلى قمة الرباط التى أعلن فيها أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد للفلسطينيين ، جلس هيكل ليتحدث مع السادات .. لكنه وجد أن الخلافات مع السادات مازالت قائمة.. ولذلك قال له : لنظل اصدقاء افضل .. ولنر فيما بعد مايمكن عمله معا.

آخر مرة رأى هيكل فيها السادات كان فى شتاء ١٩٧٥ .. لكنهما ظلا يتحدثان تليفونيا لفترة طويلة ، كانت أهم المكالمات.. هى المكالمة التى جرت بينهما بعد أحداث ١٨ و١٩ يناير والتى دارت كالتالى:

- هيكل: أهلا يا افندم أتمنى الا تكون متضايقا
- السادات: هو ده ما كنت أقوله لك دائما يامحمد
- هيكل : إيه هو ؟
- السادات: مراكز القوى أهم اتحركوا
- هيكل : اعمل معروف لاداعى لاستدعاء أشباح نسيناها.

السادات: لا.. لا يامحمد .. وبعد أن شرح هيكل وجهة نظره فى المظاهرات وحاول أن يؤكد أن لها بعدا اجتماعيا .. وجد السادات يقول له .. «أنا مافهمتش حاجة.. أنت جرالك إيه .. صديت» لم يعلق هيكل على كلام السادات.. وبعد حوارات طالت طلب سيد مرعى من هيكل ألا يضغط على السادات ولايضايقه ولايلح عليه بآرائه وأفكاره!

عندما خسر السادات هيكل خسر كثيرا ، فلم ينس هيكل جرحه الذى كان السادات وراءه .. ولذلك كان طبيعيا أن يفضح هيكل السادات فى كتابه «خريف الغضب.. قصة بداية ونهاية عصر السادات» وهو الكتاب الذى استخدم فيه هيكل كل قدراته .. لم يركن إلى قدرة الباحث الذى يحارب بسلاح الوثائق فقط ولكنه أخرج أسلحته كلها فاستخدم الأسلوب الروائى والتحليل النفسى. حاول هيكل أن ينفى عن نفسه تهمة أنه تعمد الإساءة إلى السادات .. لقد علق على لون السادات الأسود فى كتابه .. وبرر ذلك قائلا :

انا تناولت لون السادات وانا مش ابيض انا من الصعيد .. وعندى اصدقاء من افريقيا ولست عنصريا ولا اتصور ان اللون نقيصة لكنى حاولت أن أجد فى اللون مفتاحا للنفاذ لأنور السادات.

تحدث هيكل فى خريف الغضب عن نشأة السادات وفقره .. واتهمه البعض انه يعاير السادات بأصله وفصله وفقره .. وبرر هيكل ذلك أيضا قائلا : لقد حاولت استعمال مفاتيح النشأة والبيئة فى خريف الغضب وهى مشروعة وعلمية، كل واحد فينا بما فى ذلك رجل السياسة هو ذلك الطفل الذى كان، لقد غضب البعض عندما تكلمت عن تأثير الفقر على السادات فالفقر ليس عيبا تصور البعض اننى أعايره وهو ما لم يخطر ببالى فانا حاولت أن افهم مكوناته بقدر ما استطيع.

قد يكون هيكل صادقا فيما قاله فى حواراته الكثيرة تعليقا على خريف الغضب .. لكن ضربته للسادات لم تكن طائشة .. اوجعته.. والمت من يحبون السادات على قلتهم ، خسر السادات كثيرا لأن هيكل خرج من معسكره ، وظل فى معسكر السادات كتاب اهتموا بمصالحهم .. لم يجيدوا الدفاع عن السادات أو تحسين صورته أو رد غيبته فطارت كلماتهم عنه فى الهواء وبقيت كلمات النقد والهجوم ثابتة وراسخة .. انتشرت بسهولة .. واصبح سهلا أن تسمع من رجل الشارع العادى كلاما فى حق السادات وكأن السادات مجرد مواطن عادى ولم يكن يوما من الأيام رئيسا للجمهورية له حسناته وسيئاته .. قد تكون سيئاته قاتلة لاتغتفر لكنها تبقى فى النهاية سيئات رئيس يحاول أن يجتهد فأخطأ!

لقد تعرض الرئيس السادات -طوال حياته ولايزال رغم مرور أكثر من عشرين عاما على اغتياله- لحملة من الشتائم والسباب جردته حتى من ثيابه التى تستره.. الغريب أن الرئيس السادات نفسه كان هو السبب الرئيسى فى هذه الحملة المستمرة، توضيح ذلك يحتاج إلى عقد مقارنة بين السادات وعبدالناصر.

عبدالناصر عندما كان يغضب على صحفى كان يعتقله .. يخرسه .. يظهر له العين الحمراء .. كان عبدالناصر يكسر أعناق الرجال.. فعل ذلك مع إحسان عبدالقدوس وفكرى أباظة ومصطفى امين .. كان يحيلهم إلى أشباح لاتجرؤ فى التفكير فى الحديث عن عبدالناصر بعيب حتى لو كانت العيوب ظاهرة ، اما السادات فكان عندما يغضب على صحفى يشتمه ويسبه، فيتحول الصحفى بذلك الى ند لرئيس الجمهورية.. لم يفعل ذلك مع الصحفيين فقط .. ولكنه عندما شتم الشيخ كشك شتمه الشيخ فى شريطه المناظرات عندما قال : اعتبر أيها

السادات من سلفك .. انظر الى جبروته .. ثم كيف بات الآن عظاما بالية ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ذهب من لايقولها وجاء الآن من يقولها مبتورة .. بسم الله اكملها ياناقص.. جعل السادات نفسه فى مساواة مواطنيه فتجراوا عليه .. فإذا شتمهم شتموه .. وإذا أهانهم أهانوه!

عبدالناصر سجن عددا كبيرا من الصحفيين والكتاب والمفكرين وقد فعل السادات ذلك أيضا وبشهادة الذين دخلوا سجون الرئيسين ، فإن سجن السادات كان مجرد نزهة بالنسبة لسجون عبدالناصر ..لكن الفارق أن عبدالناصر اقنع كل من سجنهم انه فعل ذلك من أجل خدمة الوطن وقضيته .. ولذلك لاتجد مثقفا كبيرا أو حتى مواطنا عاديا دخل السجن فى عهد عبدالناصر إلا ويمدح الزعيم ويسبح بحمده، السادات جعل القضية شخصية..ولذلك شعر كل من دخل السجن فى عهده انهم ضحايا غروره ومجده الشخصى ولذلك اعتبروه خائنا.. باعهم بلا ثمن .. واهدر كرامتهم فى السجون المظلمة بلا مقابل.

لقد ساوى السادات نفسه بالمواطنين .. كبارا وصغارا عندما نزل معهم فى سجال وتبادل معهم الشتائم ، ففقد هيبة الرئيس ووقاره .. وعندما اختفى الوقار، تجرأ عليه الجميع على صفحات الجرائد وفى الأفلام والمسلسلات وفى الجلسات الخاصة ..وكان هذا ما جناه على نفسه .. ولم يجنه عليه أحد !

محمد الباز